قراءة في مخطوط أحمد بن فضلان عن رحلته إلى بلاد اسكندنافية

سامر مسعود*

تعتبر مخطوطة أحمد بن فضـلان عن رحلته إلى بلاد اسـكندنافية وما رآه مـن عجائب طبيعتها وطباع أهلها، حين اختطفه جنود الفايكنغ وأخذوه معهـم إلى بلادهم، أول وأهم مرجع تاريخي وعلمي عن تلك البلاد، كتب في أواخـر القرن العاشـر الميلادي، وقد ترجمت تلـك المخطوطة إلى كل لغات العالم الحية، خاصـة الأوروبية باعتبارها المرجـع «الإنثروبولوجي» الوحيد عن شـعوب تلك البلاد قبل أن تدخلها الحضـارة، والقراءة والكتابة.. وقد

* باحث سوري.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

أظهر الدارسون والباحثون الاسكندنافيون اهتماماً خاصاً

ملحوظاً بجمعها والبحث عن أصولها وتنقيحها ونشرها. فلماذا اختطف الفايكنغ أحمد بن فضلان، وماذا رأى وسمع في تلك البلاد؟

كان أحمد بن فضلان أحد أفراد البعثة التي أوفدها الخليفة العباسي المقتدر إلى بلاد الصقالبة (أي الروس البلغار) بناء على طلب مليكها لكي تفقهه في الدين وفي شرائع الإسلام، وتبني له مسجداً، وتقيم له حصناً ضد ملوك الخزر اليهود الذين يعتدون على قومه، ويفرضون عليهم ما شاؤوا من الأتاوات، وكان ملك الخزر يخطب من يشاء من بنات الصقالبة ويتزوجها غصباً، والخزري يهودي وابنة الصقلبي مسلمة!. وهكذا تحرك الوفد من بغداد يوم الخميس الحادي عشر من صفر عام ٣٠٩ هجرية / (٢١ حزيران ٩٢١ ميلادية)، إلى أن وصل إلى نهر الفولغا، وبلاد البلغار، وبينما كان الوفد يستعد لقطع الشوط الأخير من الرحلة، التقى ابن فضلان فجأة «بأهل بلاد الشمال» وقد وصلوا لتوهم، وكانوا ينصبون خيامهم على شواطئ نهر الفولغا، يحدثنا ابن فضلان عن أول انطباع تشكل لديه عنهم فيقول: «لم أر في حياتي قط أناساً مردة كهؤلاء، فكلهم طوال كأشجار النخيل، محمرو الوجنات، لا يرتدون الجلاليب ولا القفطان ولكن رجالهم يرتدون ثوباً من القماش الخشن مردود إلى أحد جانبيه وخنجراً وسيفاً، ولا تراهم بدونها، سيوفهم عريضة ذات خطوط مموجة، أما أجسادهم فمغطاة من قمة رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم بوشم من صور الأشجار والأحياء وأشياء أخرى». «أما نساؤهم فيحملن على صدورهن صندوقاً صغيراً من الحديد والنحاس أو الفضة والذهب، حسب ثروة أزواجهن، كما يحملن خاتماً مثبتاً على هذه الصناديق، وفوق الخاتم خنجراً، ويرتدين الأطواق الذهبية والفضية حول أعناقهن».

«إنهم من أقذر خلق الله، فهم لا ينظفون أنفسهم بعد الذهاب إلى المرحاض، ولا يغتسلون بعد جنابة مثلهم مثل الحمر البرية».

«وهم يأتون من بلادهم ويرسون سفنهم في الفولغا، هناك يبنون بيوتاً خشبية، يعيش في كل منها عشرة أو عشرون منهم، ولكل رجل منهم مصطبة عالية يجلس عليها برفقة الفتيات الجميلات اللواتي أتى بهن ليبيعهن. بعد حلول الفايكنغ على ضفاف الفولغا، مرض زعيمهم «وغلف»، فأقيمت له خيمة عزل فيها، حسب عادتهم، انتظاراً لموته، ثم اختاروا زعيماً جديداً اسمه «بيولف» كان

رجلاً قوياً فارع الطول ذا جلد وشعر ولحية ناصعة البياض، له هيبة الزعيم ومات الزعيم المريض، فقرر ابن فضلان أن يبقى حتى يشاهد ما سيحدث».. مددوه في قبره على مدى عشرة أيام حتى أتموا تفصيل وخياطة ثيابه، ثم أتوا بأمتعته الشخصية وقسموها إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول أخذته عائلته، والثاني دفع ثمنا للثياب التي أعدت له، والثالث يصرف على نفقات ولائم الدفن.. وهو اليوم الذي تسلم فيه إحدى الفتيات نفسها للموت مع سيدها». في هذه الأثناء اكتشف «بيولف» الزعيم الجديد، منافساً له يدعى «توركل» كان يشك بأن ابن فضلان كان ساحراً أو مشعوذاً، وأنه المسؤول عن موت «وغلف» وأنه يتآمر ليصبح «بيولف» الزعيم الجديد.

ويتابع ابن فضلان حديثه عن طقوس الدفن فيقول: «وحين حل اليوم الذي ستلتهم فيه ألسنة اللهب «وغلف» والفتاة، قربت سفينته من شاطئ النهر، ثم أقيمت حولها أربعة أكوام من الحطب والأخشاب، وأحيطت بتماثيل بشرية.. بدأ الناس يمشون جيئة وذهاباً ويرددون كلمات لم أفهمها فلغة أهل الشمال ثقيلة على السمع يصعب فهمها، بينما الميت في قبره القريب من السفينة، ثم أتوا بما يشبه السرير، وضعوه في السفينة وغطوه بالقماش اليوناني المذهب والوسائد المزركشة».

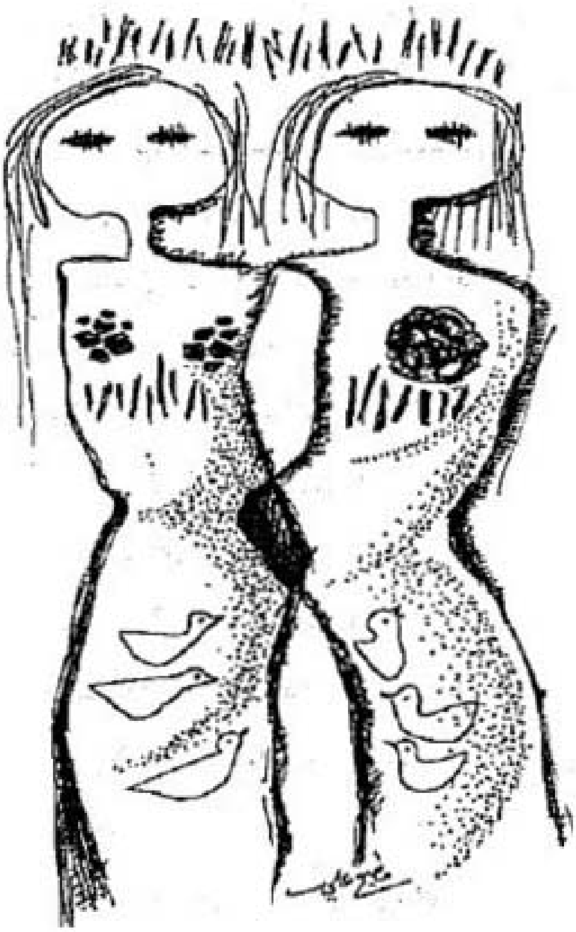
«ثم جاءت حيزبون شمطاء كانوا يسمونها ملاك الموت، وكانت غليظة البنية لها ملامح تدخل الهلع إلى القلب»، كانت «ملاك الموت» المزعومة هذه هي التي ستشرف على قتل الفتاة، وتلبس الميت ثيابه الأنيقة وتنقله إلى السفينة، وهنا يصف ابن فضلان باستغراب وخوف واشمئزاز ما جرى للفتاة المسكينة، حين نقلت مع الميت إلى السفينة، وقتلت هناك، مع ما قتلوه من الأحصنة والكلاب والثيران وألقوه في السفينة، إلى أن تنتهي المراسيم بالمشهد التالي: «اقترب أقارب الميت وأخذ أحدهم قطعة من الخشب الملتهب، ومشى عارياً إلى الخلف باتجاه السفينة، وأشعل النار فيها دون أن ينظر إليها. وسرعان ما كانت الجنازة العائمة شعلة من اللهب، والسفينة والخيمة والرجل والفتاة وكل شيء آخر عاصفة من النيران الملتهبة».

كان المترجم رجلاً مجرباً ومطلعاً على التقاليد الإسلامية في الدفن، ولما رأى تأثر ابن فضلان بما جرى للميت والفتاة المقتولة، نظر إلي وقال: «أنتم العرب قوم عجيبون. تأخذون أحب رجالكم إليكم وأكثرهم احتراماً ووقاراً وتلقون بهم تحت الأرض

لتلتهمهم الزواحف والديدان، بينما نحن نحرقهم في رمشة عين، فلا يكادون يموتون حتى يدخلوا الجنة مباشرة!».

بعد هذا المشهد المريع، علم ابن فضلان أن الزعيم المنافس «توركل» يعد العدة لقتله ثم قتل الزعيم الجديد «بيولف» ونصحه المترجم بأن يهرب من هناك إذا استطاع، ولكن إذا قبض عليه مرة أخرى فسيكون هربه دليلاً على ما كان الزعيم المنافس يدعيه، وسيقتل عقاباً له كما يقتل اللصوص، عندها اكتشف ابن فضلان أن الجبن سيد الأحكام وأن يطبق المكر القائل «تهمة الجبن أفضل من الموت» وبقي مع أهل الشمال على أمل أن يسمحوا له بالرحيل من تلقاء أنفسهم. لاحظ ابن فضلان أن هؤلاء يحاولون التظاهر بعدم الخوف وعدم الاكتراث، واكتشف أن هذا دليل كبير على خوفهم من كل شيء. وأذهل ابن فضلان أن يكتشف أن أشد ما يثير في قلوبهم الرعب هو الصقيع والضباب، وعبثاً حاول أن يكتشف سر هذا الخوف الكبير من الضباب.

وفي يوم كثيف الضباب وصل قارب من



الشمال عليه شخص رفيع المقام من قومهم، كان شاباً في مقتبل العمر، ولم يكن يرافقه في رحلته سوى عدد قليل من الخدم والعبيد، لم يكن بينهم نساء ولهذا استنتج ابن فضلان أنه لم يكن تاجراً، لأن الشماليين يأتون إلى هذه المناطق لبيع النساء فيها. أرسى سفينته بنفسه، وبقي واقفاً عندها حتى هبط الليل، لم يقترب منه لتحيته أي إنسان مع أنه كان قريباً وعلى مرأى من الجميع، وحين سأل ابن فضلان المترجم عن هذا التصرف الغريب قال له: «إنه أحد أقرباء «بيولف»

وسيكون ضيفه في وليمة المساء». وسأل ابن فضلان: «ولماذا يبقى عند سفينته؟ وجاءه الجواب. بسبب الضباب ! إذ «يقضي العرف بأن يبقى واقفاً على مرمى البصر عدة ساعات حتى يراه الجميع ويوقنوا أنه ليس عدواً قادماً من الضباب...».

في وليمة المساء الجنونية الصاخبة علم ابن فضلان أن القادم الجديد هو «وولف غار» ابن «روث غار»، أحد ملوك بلاد الشمال العظام، وقد جاء يطلب عودة قريبه «بيولف» ليساعدهم في مهمة بطولية، قال «وولف» إن بلاد والده تعاني من رعب ليس له اسم، ويعجز كل الناس عن مقاومته، ولهذا أتى يطلب من «بيولف» أن يعود لينقذ الناس من شره !. اكتشف ابن فضلان أن الناس لا تجرؤ على ذكر اسم ذلك الرعب، فحتى ذكر الاسم، كما قال المترجم، محرم لأنه يستدعي الشياطين، وكان هلع المترجم واضحاً على قسماته. «ثم دخلت قاعة الوليمة الحيزبون الشمطاء الملقبة بملاك الموت، وجلست قرب «بيولف»، ومن حقيبة مخبأة أخرجت بضع عظمات لم أدر إن كانت عظاما بشرية أو حيوانية، وألقت بهذه العظمات على الأرض، وراحت تردد كلمات مبهمة وتمرر يدها فوق العظمات». «ثم جمعت العظمات وألقيت ثانية ترافقها دمدمات وألحان، ثم ألقيت ثالثة، بعدها نظرت الحيزبون إلى «بيولف» وقالت شيئاً ما». ثم ألقى «بيولف» خطاباً طويلاً على النبلاء والمقاتلين المجتمعين هناك، وشيئاً فشيئاً نهض عدد من المحاربين من أماكنهم ووجوههم باتجاهه. عددت الواقفين فوجدتهم أحد عشر مقاتلاً، ورأيت «بيولف» يعبر عن رضاه. واستغرب ابن فضلان أن يرى «توركل» مسروراً بادي السرور لما جرى، علم بعد ذلك أن على «بيولف» أن يعود إلى الشمال ليدفع عن البلاد المصاب الذي يتهددها، وقال المترجم: «وسوف يأخذ معه أحد عشر مقاتلاً، وسيأخذك أنت أيضاً معه». سقط قلب ابن فضلان هلعاً، وقال إنه مرسل في مهمة إلى بلاد البلغار، وعليه أن ينفذ أوامر خليفته، ولكن المترجم قاطعه قائلاً «هذا ما قالته ملاك الموت ويجب أن ينفذ، يجب أن تكون مجموعة «بيولف» ثلاثة عشر رجلاً، ويجب أن يكون أحد هؤلاء من غير أهل الشمال، وهكذا فلا بد أن تكون أنت الرجل الثالث عشر !». وهنا يصف ابن فضلان شعوره بالخوف فيقول: «احتججت واعترضت على ذلك قائلاً إنني لست من المحاربين وقدمت كل الاعتذارات والتوسلات التي خطرت على بالي، والتي قد يكون لها تأثير على هذه المخلوقات ورجوت المترجم

أن ينقل كلماتي إلى «بيولف»، ولكنه أشاح بوجهه عني وهو يردد مهدداً: أعدِّ نفسك كأحسن ما يكون الإعداد سترحل معهم مع أول خيوط ضوء الصباح!!»

منذ تلك اللحظة اعتبر ابن فضلان نفسه في عداد الأموات، كما يقول، وأعطى ما لديه من معلومات وتعليمات إلى أعضاء الوفد الآخرين وإلى سفير ملك الصقالبة، ثم ودعهم دون أن يدري بما جرى لهم بعد ذلك. وبدأت رحلة ابن فضلان مع «بيولف»، الذي ترك ابن الملك «روث غار» وراءه مع القوم. بعد ثلاثة أيام من السفر عبر نهر الفولجا وصلت السفينة إلى عاصمة ملك الصقالبة، فتوسل ابن فضلان إلى المترجم (واسمه «هرغر») أن يطلب من «بيولف» أن يسمح له بالنزول لتأدية الأمانة، ولكن لم يتنازل «هرغر» حتى للرد على سؤاله، وأخيراً التفت إليه وهو يضحك ثم عاد ينظر إلى أشرعة السفينة. وغادرت سفينة «بيولف» عاصمة ملك الصقالبة، وسارت مدة ثمانية أيام حتى وصلت إلى بلدة من بلاد أهل الشمال تسمى «ماسبورنج». وهنا نترك لابن فضلان وصف غرائب ما جرى له بعد ذلك. «لم تكن بلدة بالمعنى الصحيح، بل هي أشبه بمعسكر مؤلف من عدد قليل من البيوت الخشبية الكبيرة مبنية على طريقة أهل الشمال، تعيش على بيع المواد الغذائية للتجار الذين يقصدونها.

تركنا السفينة هناك وبدأنا رحلة على ظهور الخيل ثمانية عشر يوماً، كانت منطقة جبلية وعرة شديدة البرودة.. هؤلاء الشماليون لا يسافرون ليلاً أبداً، لا براً ولا بحراً، لكنهم يفضلون أن يرسوا سفنهم أو يتوقفوا حتى بزوغ فجر اليوم التالي قبل استئناف الرحيل. خلال فترة سفرنا تلاشت مدة الليل حتى لم تعد تكفي لطبخ وجبة من اللحم.. فما كنت آوي إلى النوم حتى يوقظني الشماليون قائلين: «طلع النهار، فانهض لنستأنف رحلتنا». وأوضح لي «هرغر» أن النهار في بلاد الشمال يكون طويلاً في الصيف، والليل طويلاً في الشتاء، وأنهما نادراً ما يكونان متساويين، ثم قال لي إن عليّ أن أراقب السماء ليلاً لأرى منارة السماء على صورة أضواء شاحبة متراقصة خضراء وصفراء وأحياناً زرقاء، معلقة كالستائر في أعالي الجو وقد دهشت جداً لمنظرها حين رأيتها، ولكن أهل الشمال لا يعدونها منظراً عجيباً.. وحدث ذات ليلة أننا كنا نأكل وجبتنا المعتادة فبدأت الأكل بقول «باسم الله» سأل «بيولف» هرغر عما قلت، فأجبت بأنني أعتقد أنه يجب ذكر اسم الله على الطعام، وأن هذا ينسجم مع

معتقداتي، سأل «بيولف» أهذا هو أسلوب العرب؟ فقلت للمترجم: لا الواقع أن الذي يجب أن يقول ذلك هو ذابح الذبيحة ولكني أقول «باسم الله» لكي لا أنسى !! وقد وجد الشماليون في هذا نكتة أضحكتهم كثيراً، ثم سألني «بيولف»: هل تستطيع رسم الأصوات؟ لم أفهم قصده، فاستفسرت من «هرغر» وفهمت أنه يعني الكتابة.. ثم طلب مني أن أكتب له على الأرض.. أخذت عصا وكتبت «الحمد لله».. سألوني عن معناها فأجبت، فجأة حدق «بيولف» في الكتابة مدة طويلة ورأسه غارق في صدره، قال «هرغر»: أي إله هذا الذي تحمده؟ فأجبت: هو الذي لا إله إلا هو، فقال هرغر: إله واحد يكفي!! استأنفنا الرحيل ليوم آخر وقضينا ليلة أخرى، وارتحلنا نهارا آخر، وفي مساء اليوم التالي تناول «بيولف» عصا وكتب على الأرض ما كنت قد كتبته وطلب إلي أن أقرأه، قلت بصوت عال «الحمد لله»، ظهرت ملامح السعادة والرضى على وجهه، وقد وجدت أنه كان يمتحنني وأنه احتفظ بأشكال الكلمات التي كتبتها في ذاكرته.

وسألني محارب آخر، اسمه اكتغو، إن كنت أستطيع أن أرسم اسمه، فأجبت بالإيجاب وما أن بدأت أفعل ذلك حتى هجم علي وأطاح بالعصا من يدي، وداس على ما كتبت وهو يردد كلمات غاضبة، انتابتني الحيرة، وكنت أرى غضب الآخرين مني يرتسم على وجوههم، فوعدت المترجم، ألا أرسم اسم أكتغو ولا أسماء الآخرين أبداً، فبدا الارتياح على وجوههم. أما بيولف فقد بدأ يكرمني وكلما كانت السماء تمطر، كان يأمر بأن أؤخذ إلى شجرة كبيرة لحمايتي، كما صار يقدم لي كميات أكبر من الطعام. لم نكن ننام في الغابات، كما لم نكن نركب خيولنا في أكثر الأحيان عبرها، فعند أطراف بعض هذه الغابات، كان «بيولف» ورفاقه المحاربون يندفعون إلى الأمام وجيادهم تعدو خلال الأشجار الكثيفة، دون خوف أو حذر، وفي بعضها كان المقاتلون يتوقفون ثم يترجلون ويشعلون ناراً ويقدمون القرابين من الطعام وبعض أرغفة الخبز اليابس، أو ربما منديلاً من القماش قبل أن يستأنفوا السفر من جديد، ثم يمتطون خيولهم ليدوروا حول الغابة دون أن يدخلوا إلى أعماقها.. استفسرت من هرغر عن هذا، فأجاب بأن بعض الغابات كانت آمنة وأن بعضها ليس كذلك، فسألته: وما هو الشيء غير الآمن في الغابات؟ فقال: هناك أشياء لا يستطيع إنسان أن يقهرها أو يقتلها بسيف، أو يحرقها بنار.. هذه الأشياء تعيش في الغابات.. قلت: وكيف تعرفون ذلك؟

قال متذمراً: أنتم العرب تريدون دائماً أن تعرفوا سبباً لكل شيء، وقلوبكم كيس مملوء بالأسباب. قلت: وأنتم، ألا تهتمون بالأسباب؟ فقال: إنها لا تجدي شيئاً، نحن نقول إن الإنسان يجب أن يكون حكيماً ولكن باعتدال، ولكن لا يفرط في الحكمة، وإلا عرف قدره مسبقاً، أما الإنسان الذي يكون متحرراً من الاهتمام والحرص على المعرفة، فلا يعرف قدره مسبقاً.

وفي إحدى الليالي سمعت دمدمة حسبتها رعداً، ولكنهم قالوا إنها صوت عويل التنين في الغابة، لم أر شيئاً، ولكني أكتب هنا ما قيل لي. بلاد الشمال باردة رطبة، وقلما ترى الشمس فيها، فالسماء رمادية تغطيها السحب الكثيفة طوال النهار، والناس في هذه المناطق شاحبو الوجوه وكأنها قماش قطني، أما شعورهم فشقراء شديدة الشقرة، بعد أيام عديدة من السفر لم أعد أشاهد أناساً سمراً على الإطلاق، والواقع أن سكان هذه المناطق كانوا يستغربون لون جلدي وشعري الأسود، وكثيراً ما اقترب مني مزارع أو زوجته أو ابنته ليلمسوني بشيء من الحذر والخوف، وكان «هرغر» يقول ضاحكاً إنهم يحاولون إزالة لوني اعتقاداً منهم بأنه طلاء طليت به جسمي، إنهم قوم جهلاء لا علم لهم بسعة هذه الدنيا، وكثيراً ما كانوا يخافون من الاقتراب مني، وفي أحد مراحل السفر، رآني طفل صغير فصاح من الرعب الشديد ثم جرى هارباً وتعلق بأمه والخوف يملأ قسمات وجهه. بعد سفر طويل نسي ابن فضلان عدد أيامه، وصلوا إلى شاطئ البحر مرة ثانية، واستقلوا سفينة أخرى عبرت بحراً كان من البرودة بحيث تخدر اليد إذا لامست مياهه رمشة عين، ويقول ابن فضلان إنهم كانوا يستقبلون بكرم لا يعرف الحدود في كل مكان كانوا يتوقفون فيه. ليس خوفا ولكن كرماً من أهل تلك المناطق البعيدة، حتى الفقراء منهم لم يكونوا يبخلون بشيء.. ويصف إباحيتهم التي يقول إنها عادات متأصلة فيهم، ثم يتابع حديثه فيقول: في كل مكان كنا نتوقف فيه كان الناس يسألون «بيولف» عن المهمة التي قطع على نفسه وعداً بتنفيذها. وحين كانوا يخبرون بطبيعتها - والتي لم أدركها أنا حتى الآن- كان هو ومن معه يحاطون بأعظم الاحترام -وأنا منهم- وترتفع الأصوات بالدعاء لنا بالنصر، كما كان الناس يقدمون لنا الذبائح والحجب المحملة بأطيب التمنيات. وصل الجمع إلى بلدة تدعى «يتلم» حيث كان يقيم والد «بيولف» وأهله، كانت البلدة قاعاً صفصفاً، وقد قتل جميع أهلها، ولكن حتى في هذه الحالة لم يظهر أثر للحزن أو البكاء..

يقول ابن فضلان: «لم أر في حياتي قط قوماً يتقبلون الموت كما يتقبله أهل الشمال..».

ويصف ابن فضلان بيوت مدينة تلبرغ التي زاروها بعد «يتلم» وكيف أن أبوابها منخفضة جداً رغم طول أهل بلاد الشمال، وحين سأل قيل له إن هذا أُعدّ لمنع الأعداء من دخول تلك المنازل، بحيث يبقى شخص واحد داخل البيت يحمل سيفه عند الباب ويقطع رأس كل من يحاول الدخول منه، لأن الباب المنخفض يجبر الداخل على مد رأسه أولاً.. وفي تلبرغ علم ابن فضلان أن الرقم ١٣ هو رقم عظيم الأهمية عند أهل الشمال، لأن القمر ينمو ويصير هلالا ثم يغيب ثلاثة عشرة مرة على حسابهم ولهذا السبب فإن كل حساباتهم الهامة يجب أن تحوي الرقم ١٣، فعدد منازلهم في تلبرغ هو ١٣ يضاف إليها ثلاثة أخرى بدل أن يقال إن عدد المنازل هو فعلاً ١٦ منزلاً.

ثم يضيف ابن فضلان: وعلمت أن لدى الشماليين عقيدة مفادها أن السنة لا تتفق تماماً وبدقة مع ثلاثة عشرة دورة للقمر، ولهذا فإن الرقم ١٣ ليس ثابتاً في عقولهم، ومرور القمر ثلاثة عشرة مرة فوق بلادهم يسمى «المرور السحري» أو «الأجنبي» ولهذا، كما قال «هرغر» اختاروا ابن فضلان ليكون الرجل الثالث عشر، لأنه الأجنبي!! ويعلق ابن فضلان على ذلك بقوله: والحقيقة أن هؤلاء الشماليين قوم يؤمنون بالخرافات دون الرجوع إلى منطق أو عقل أو قانون، بل كانوا يبدون لي وكأنهم أطفال متوحشون..

وأخيراً، وصل المقاتلون إلى ما أسماه «هرغر» المترجم «أرض الوحوش» أو حين ركب البحر «بحر الوحوش» فبدأوا بالأدعية والصلوات، وسأل ابن فضلان وهل رأيتم هذه الوحوش؟ فأجاب «هرغر» نعم لقد رأيناها جميعاً، وإلا فكيف نعرفها؟». ورأى ابن فضلان الوحش بعينه بعد ذاك بقليل، ولم يكن سوى حوت كبير، أطلق عليه ابن فضلان اسم «الأفعى» وصل الجمع أخيراً إلى مملكة «روث غار» كانت قاعة مليكها مزينة بالزخارف المتلألئة، وبدأ المحاربون يستعدون للنزول من السفينة، يقول ابن فضلان: رست السفينة على الشاطئ وقت العصر، فاستغفرت الله لأنني لم أقم بالصلاة والدعاء، ومع ذلك فلم يكن بإمكاني أن أصلي وأدعو بحضور الشماليين الذين كانوا يظنون أن صلواتي لعنات عليهم، وهدّدوا بقتلي إن أنا صليت على مرأى منهم.

نزلنا من السفينة.. وانطلقنا بقيادة «بيولف».. حتى وصلنا إلى بقعة من الأرض سوداء داكنة وهناك رأيت بعيني آثار أقدام عارية.. كانت أقداما مسطحة لم أر في الخلق

ما هو أبشع منها، فعند كل اصبع من أصابع القدم كنت أرى حفرة تدل على ظفر أو مخلب كالقرن.. كانت الأشكال تبدو بشرية، ولكنها لم تكن بشرية أيضاً، لقد رأيت هذا بأم عيني، رغم أنني لم أكد أصدق ما رأيت.. سمعت «بيولف» ومحاربيه يرددون كلمة واحدة مرات عديدة. «وندول» أو «وندلون» أو كلمة قريبة منها..

عاد بيولف وجماعته إلى قصر الملك «روث غار» أو قاعته، كما سماها، يقول في وصفها أن الناس هناك يسمونها «هاروت» لأن أهل الشمال يعطون أشياءهم أسماء بشر، كما يعطون هذه الأسماء للأبنية والسفن، وخاصة للأسلحة، وأقول بحق أن هاروت هذه، أي قاعة «روث غار» العظيمة، كانت بحجم قصر الخليفة كله، ومطعمة بالفضة وحتى ببعض الذهب.. وفي كل جانب منها كانت هناك رسومات وزينات رائعة جميلة.. أما الملك «روث غار» فقد جلس في نهاية القاعة التي بلغت من السعة والطول مدى لم نكن نستطيع معه أن نرى الملك إلا بصعوبة. وتحدث الملك و «بيولف» عن الأعداء المتوحشين الذين هدموا مملكتي والد «بيولف» (تلم) ومملكة «روث غار».. وبعدها أقيمت وليمة كبيرة، عاد المنادي ليقول إن الضباب لن يحل في ذلك المساء..

وانتهت الوليمة ونام الجميع ليستيقظوا على أصوات بناء الاستحكامات حول القاعة، ولكن حين وصلت «ملاك الموت» في منتصف النهار وأعلنت أن الضباب آت لا محالة تلك الليلة، أمر «بيولف» بوقف العمل في الاستحكامات والإعداد لوليمة كبرى في ذلك المساء، ثم استدعى مقاتليه وأمرهم أن يستعدوا للمعركة..

ثم يتحدث ابن فضلان بعد ذلك عن المعركة مع الوحوش المسماة بالـ «وندول»، والتي تسكن كهوفاً في أعالي الجبال، وكيف أجهز «بيولف» على كبيرة الوحوش قبل أن يلقى حتفه في المعركة بعدها يحدثنا ابن فضلان عن عودتهم إلى قصر الملك «روث غار»، ووليمة الانتصار وهجوم الوندول الرهيب في تلك الليلة طلباً للثأر، أتوا مع الضباب وقتلوا الكثيرين، ومنهم «بيولف» الذي تعرض لنقمة ثأرهم الرهيب، ولكن الوندول هُزموا أخيرا، فحتى ابن فضلان قتل منهم ثلاثة وأصيب هو بجرح في كتفه غسله له «هرغر»، أمر الملك «روث غار» بأن يدفن «بيولف » دفناً يليق بالملوك، وقبل الدفن، نطق ابن الملك «روث غار» بكلمات اعتبرها ابن فضلان إهانة لـ «بيولف» فاستل سيفه وهجم على الابن الجبان، وهنا تدخل منادي الملك ليدافع عن الابن فصارعه ابن

فضلان بالسيف وصرعــه وقتل هرغر ابن «روث غار» انتقاما لـ «بيولف»..

وهكذا لم يبق من رجال «بيولف» الثلاثة عشـر سوى أربعة، كان ابــن فضلان واحدا منهم وبعد بضعة أسابيـع هناك، بدأ يحن إلى الوطن: صرت أشعر بالحنين إلى بلادي، وقــد أعلمت الملك أنني مندوب الخليفة إلى ملــك الصقالبة، وأن علي أن أنفذ مهمتي.. ولكــن «روث غار» كان مترددا في السماح لي بمغادرة مملكته، واخــترع كل ما يخطر من الأعذار والأسباب على البال لتأخير رحيلي ولكن «هرغر» أقنع الملك بالسماح لي بالرحيل بعد انتظار طويل، ويحدثنا ابن فضلان عن لحظــة الوداع فيقــول: كانــت ساعة فراق حزين جداً.. وقد شعر هرغر بنفس الشيء، وأمسكت بكتفيه وأمسك بكتفي مودعاً.. ثم انطلقــت السفينة بي مبتعــدة عن شواطئ فنــدان.. وآخر مــا رأته عينـــاي كان قاعة «روث غار» المتألقــة والمحيط المديد أمامنا والآن حدث أن.

وتنتهـــي مخطوطــة ابن فضـــلان فجأة عند هذه النقطة، ولا يعرف أحد الأسباب، ولكنها مهما كانــت حرمتنا من متعة أخبار رحلة العودة.